الاستاذ جبر ضومط

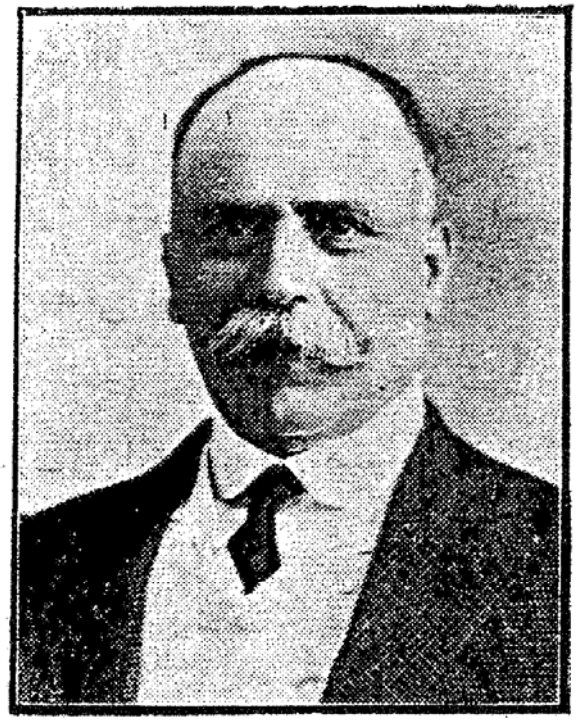

أستاذ اللغة والآداب العربية في جامعة بيروت الاميركية واحد أعضاء المجمع العلمي العربي في دمشق توفاه الله ليلة الاحد الواقع في ١٩ كانون الثاني سنة ١٩٣٠ في الثانية والسبعين من عمره بعد ان جاهد في خدمة العلم والادب واللغة العربية اربعاً وخمسين سنة ، وقد أقيمت له جنازة مهيبة وسير بنعشه مرفوعاً على اكف تلاميذه وعارفي فضله الى منتدى الجامعة الكبير حيث صُلي عليه ، ثم نقل الى سوق الغرب يشيعه موكب عظيم من زملائه وأصدقائه وتلاميذه ودُفن بكل احترام في مدفن أُسرته .

(نشأته) — كانت ولادة الاستاذ جبر ضومط في ١٤ ايلول سنة ١٨٥٩ في برج صافيتا من اعمال طرابلس الشام من ابوين فاضلين ولكنه مالبث ان مُني بفقد والده وهو في الثانية من عمره فقامت والدته بتربيته وأحسنت فيها مع انه كان وحيداً لها .

تلقى دروسه الابتدائية في مدرسة المرسلين الاميركان في مسقط رأسه ثم انتقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

منها الى مدرسة عبيه العالية ١٨٧٠ ودرس فيها سنتين متواليتين استعداداً لدخول المدرسة الكلية في بيروت وفي سنة ١٨٧٢ التحق بالقسم العلمي من هذه الكلية (بكلية العلوم والآداب) ونال رتبة بكلوريوس علوم ١٨٧٦ وكان ممتازاً بقوة عقله ومقدرته على حل المسائل الرياضية .

(حياته التعليمية) — بعد ان أحرز البكالوريا قصد حمص وعلّم في مدرسة المرسلين الاميركية نحو نصف سنة ثم انتقل منها الى طرابلس الشام وتولى التدريس في مدرستي الاميركان العاليتين فيها مدة ثماني سنوات كان في خلالها يطالع مؤلفات الفيلسوفين هربرت سبنسر وتشارلس دارون وقد نشرت بعض مقالاته في ذلك العهد مجلة المقتطف والنشرة الاسبوعية في بيروت .

(أسفاره وأعماله فيها) — وكأنه سئم التدريس المتواصل وهو لا يزال في إبان شبابه وعنفوان طموحه فغادر طرابلس في سنة ١٨٨٤ الى الاسكندرية واشتغل مدة في إدارة جريدة المحروسة وترجم لها كتاب دفاع عن عرابي باشا لمحامٍ انكليزي . ثم برحها الى مصر وكانت بريطانيا العظمى في حاجة الى تراجمة للحملة السودانية التي عبأتها لانقاذ غردون باشا فتطوع الاستاذ ضومط مع صديقه جرجيز يدان لهذه الخدمة وعينا ترجمانين في تلك الحملة وصحباها الى السودان وعادا في العام التالي بعد ان عانيا من اختبارات الحملات العسكرية وأهوالها ما عانياه — وما بقي اثره بليغاً في نفس الاستاذ ضومط أورثه الكره الشديد للسياسة الاستعمارية كل ايام حياته .

وأقام الصديقان جبر ضومط وجرجيز يدان في بيروت يدرسان العبرانية والسريانية استعداداً للاشتغال في احدى جامعات اوربا . وسافرا الى انكلترا وأقاما في لندن مدة من الزمن يترددان الى المتحف البريطاني والى بعض مكاتب لندن الشهيرة . اما الاستاذ ضومط فقد كان من نتاج درسه لهاتين اللسانين انه وضع باكورة مؤلفاته كتاب « خواطر في اللغة » ثم عاد الصديقان الى الوطن للعمل بين اخوانهم .

(استئناف الخطة التعليمية) — كان الاستاذ ضومط قبل سفره الى بلاد الانكليز قد علّم في مدرسة كفتين العالية للروم الارثوذكس بضعة اشهر فلما آب من سفره عاد الى وظيفة التعليم في هذه المدرسة ولازمها ثلاثة أعوام حتى انتدبته الكلية السورية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الانجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية اليوم) لادارة الدروس العربية فيها وكان ذلك سنة ١٨٨٩ على اثر استقالة سلفه الاستاذ المهندس يوسف افتيموس . وقام الاستاذ ضومط بادارة الدروس وأعباء التعليم والتهذيب خير قيام مع ما كان يلاقيه مدرسو العربية من مثبطات الهمم سواء أكان ذلك من اولياء الطلبة ام من الحكومة الحميدية في ذلك العهد .

وقدرت الكلية مواهبه العقلية وجهوده في التعليم فمنحته رتبة معلم علوم سنة ١٩٠١ ورفعت مقامه الى كرسي أستاذ اللغة العربية سنة ١٩٠٩ على اثر اعلان الدستور وتنبه الحياة القومية في السلطنة العثمانية .

(مؤلفاته) — ومما يدل على مقدرة الاستاذ ضومط العقلية واجتهاده العلمي مع انه كان يلقي الدروس العربية بنفسه على الصفوف العالية و يقوم بالواجبات المدرسية المتعددة وكان رب أسرة كبيرة — فانه تمكن مع كل ذلك من وضع المؤلفات القيمة في الموضوعات التي درسها .

كانت باكورة مؤلفاته خواطر في اللغة — الكتاب الذي طبعه بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٨٦ وقد تناول فيه اكثر المبادئ التي سارت عليها اللغة في نشوئها . قال الدكتور يعقوب صروف (في المقالة التي أعدها قبيل وفاته لتُتلى في يوبيل الاستاذ ضومط الذهبي) « المشتغلون بالعلم كثيرون ولكن قلّ منهم من يُبقي أثراً يذكر به . فالذين اشتغلوا بقواعد العربية منذ الف ومئتي سنة الى الآن يعدون بالمئات او الالوف ولكن قلما نذكر منهم غير سيبويه والمبرد والكسائي وابن جني وابن مالك وابن هشام وأمثالهم من الذين وضعوا قواعد الصرف والنحو . ومع ذلك فعمل هؤلاء كلهم مقصور على الجمع والتبويب وما منهم من بحث عن اصل العربية وكيف نشأت كلماتها وتصاريفها . فاننا صرنا نعلم في هذا العصر ان لغات البشر التي تعد بالالوف كانت في زمن متوغل في القدم لغة واحدة قليلة الكلمات ثم تفرقت طوائف وكل طائفة تشعبت شعباً كثيرة ودخل المزج والنحت في كلماتها حتى بلغت مابلغته . وهذا شأن العربية — ولكني لا أعلم ان احداً أطلق هذا البحث على العربية من ابنائها قبل الاستاذ جبر ضومط ... والاستاذ ضومط تمكن من البحث في هذا الموضوع لمعرفته العبرانية والسريانية ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو عرف الحميرية والحبشية لزاد توسعاً في البحث وكشفاً للغوامض . فهو مثل ورنر وليل في علم الجيولوجيا وتولد طبقات الارض ومثل لامارك وداروين في نشوء الاحياء وتولد بعضها من بعضها ، ومثل مندل في كشف ناموس الوراثة وتطبيقه على الاحياء . . فهل يقوم من تلاميذ الاستاذ ضومط من يعود الى هذا البحث ويكون متضلعاً من العربية والسريانية ومن الحميرية والحبشية والقبطية واليونانية واللاتينية والفارسية فيميط اللثام عن تاريخ كل الكلمات التي في معاجمنا العربية ؟ » .

وألف كتاب الخواطر الحسان في المعاني والبيان وطبعه بمطبعة الهلال بمصر سنة ١٨٩٦ ونحا في تأليفه نحواً جديداً يلائم حال الطلبة في هذا العصر وما هم عليه من تعدد الدروس اليومية وانقلاب نسق التدريس من مجرد سماع شرح الاستاذ الى أمثولة معينة يكلفون درسها بانفسهم واستخراج مافيها من المعاني . وقد اكثر من الأمثلة والايضاحات والاعادات على ما يقتضيه الاسلوب التعليمي لكي يقرب لافهام الطلبة ما كان بعيد المنال عليهم .

ثم لم يلبث ان أردف كتاب الخواطر الحسان بكتاب فلسفة البلاغة وطبعه بالمطبعة العثمانية في بعبدا (لبنان) سنة ١٨٩٨ وقد حاول في هذا المؤلف ان يقرر المبدأ العام الذي تنتهي اليه كل قواعد البلاغة وتتشعب عنه جميع تفرعاتها وضوابطها الكثيرة وهو الاقتصار على انتباه السامع وعلى التأثير فيه .

وكانت الحاجة ماسة الى مؤلف جديد في علم النحو فنشط الاستاذ ضومط لسد هذه الحاجة ووضع كتاب الخواطر العراب في النحو والاعراب وطبعته المطبعة الادبية في بيروت . وقد أراد به ان يكون لفهم الطالب اكثر مما هو لحفظه ولتنشئة التلميذ على الاعتقاد ان علوم اللغة ومن بينها النحو هي علوم خاضعة لاحكام العقل يتصرف فيها بما يناسب المصلحة والغاية لا مستعصية عليه مستبدة به . وان آراء النحاة حتى المشهورين منهم ان لم تطابق المنقول عن اللغة فيما يحتاج فيه الى النقل او المعقول فيما يحتاج فيه الى العقل فهي مما لا يعتد به .

ومما يدل على ما أحرز كتاب الخواطر العراب من المكانة عند أئمة اللغة كتاب بعث به الطيب الذكر المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية قال فيه يخاطب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاستاذ ضومط — « قصرت في الاسراع الى شكرك لما أتحفت به اهل لغتك من ذلك الكتاب الذي تجلى فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة — كتاب لم تفتك فيه فضيلة الابداع ، ولم تنقصك مزية حسن الاتباع . اقتفيت اثر سلفك في تجويد الرأي واحترام مقام العقل ، فلم يهبط بك التقليد الى مايحط بالعمل و يسقط من قيمة الكد في الجد . ثم ابتدعت في تركيب كتابك على ماهو أقرب الى الفهم وأدنى الى التقريب من حقيقة العلم ... جزاك الله عن نفسك خير مايجزى به عامل عن عمله ، وجزاك عن أهل لغتك أفضل مايجزى به محسن عن احسانه » .

وكان كاتب هذه الرسالة يدرّس علم الصرف في الدائرة الاستعدادية من المدرسة الكلية في ذلك العهد وكان الاستاذ ضومط لا يزال ينوي تتميم مؤلفاته في علوم اللغة فاتفقنا على وضع كتاب « فك التقليد » في علم الصرف وطبعناه في المطبعة الادبية سنة ١٩٠٥ وقد قلنا في مقدمته اننا تطاولنا فيه الى الدعوى انا مجتهدون لم نتبع ولم نقلد . وسواء أصحت هذه الدعوى ام لم تصح فاننا ننبه بها كثيرين الى ان الاجتهاد في هذا الفن لم يزل بابه مفتوحاً لكل مؤلف . وحسبنا ان ننبه الخواطر الى هذه الحقيقة الراهنة ، فان اكثر الطلبة والمدرسين ان لم نقل كلهم يؤخذ من ظاهر أحوالهم انهم يعدون علم الصرف من العلوم التي أغلق فيها باب الاجتهاد فما كُتب فقد كُتب لا يجوز لمؤلف ان يتطاول الى خلاقه . وفي هذا ما فيه من جمود الفكر وجمود لغتنا العربية الشريفة على ما كانت عليه في علم أفراد قلائل منذ بضع مئات من السنين الى الآن » .

وكان آخر مانشره الاستاذ ضومط بحث في من هو كاتب سفر التكوين وأجاب على سؤاله هذا بقوله هو يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم لا موسى الكليم — بانيا رأيه هذا على ماستنتجه من درس اسفار العهد القديم ولا سيما الاسفار الخمسة ونقد سفر التكوين وتحليله باعتبار ان يوسف كاتبه لا موسى .

وقد جمعت المقالات التي نشرها الاستاذ ضومط في مجلتي المقتطف والهلال وطبعت معاً في كتاب واحد بمطبعة المقتطف سنة ١٩٢٩ تحت عنوان فلسفة اللغة العربية وتطورها .

(تقاعده عن التدريس و يوبيله الذهبي) — وفي سنة ١٩٢٢ تقاعد الاستاذ ضومط

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ن اعمال التدريس فأطلقت عليه عمدة الجامعة لقب أستاذ شرف للغة العربية . وفي أواخر نيسان سنة ١٩٢٨ احتفل تلاميذه واصدقاؤه الكثيرون بيوبيله الذهبي . اقاموا الحفلة في منتدى الجامعة الاكبر وشهدها جمهور عظيم من وجوه بيروت وادبائها وفضلائها يتقدمهم رئيس الجمهورية اللبنانية واركان حكومتها . وتكلم في الحفلة فريق من زملاء الاستاذ وتلاميذه وتليت رسائل و برقيات التهنئة من الكثيرين ممن لم يتمكنوا من حضور الحفلة . وناب عن المجمع العلمي العربي في دمشق الاستاذ فارس بك الخوري . ومما زاد في رونق ذلك اليوبيل ان فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية قام في مستهل الحفلة وعلق على صدر الاستاذ ضومط وسام الاستحقاق اللبناني وقد اهدت اليه ايضا رئاسة حكومة سورية الجليلة وسام الاستحقاق السوري .

(اخلاقه وصفاته العلمية) — تحلّى الاستاذ ضومط بصفات المعلم الصالح — امتلك ناصية الموضوعات التي كان يدرّسها بما خصه الله من قوى العقل الثاقب ومن الجهد في الاكباب على الدرس والتقصي في المسائل التي كان يعالجها . اكتسب محبة تلاميذه واحترامهم بغزارة علمه وكرم اخلاقه — بلطفه في معاملتهم واخلاصه في ارشادهم وقد كان يجريهم مجرى بنيه . اختطّ لنفسه أسلوباً جديداً في التعليم وحبب الى تلاميذه درس العلوم العربية على صعوبتها . كان مع جرأته العلمية وديعاً متواضعاً بعيداً عن الدعوى لا يغمط حق زميل او يحاول الحط من كرامته اذا تحدّث عنه . كان ذا شخصية محترمة عالماً عاملاً بعلمه لا يكذب قوله فعله . وفوق هذا كله كان شديد الوطنية يحض الناس على التشبث بكل ما يعزز الوطن و يحتفظ بمقوماته الادبية والاقتصادية والاخلاقية . وان في كثير من خطبه العمومية ومن المقالات التي نشرت في المجلات ما يؤيد ذلك .

هذا غيض من فيض مما يجب ان يقال في أستاذنا الفقيد الخالد الذكر وفي ما خلف بعده من الاثر الباقي والسيرة الصالحة .

بيروت : بولس الخولي
عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net